**وراثة الماء**

مارينا تباسم

"ليس ثمة شيء اسمه "أرض جافة". فالبلل موجود – بدرجة ما – في كل مكان.. في البحار والسحب والمطر والندى والهواء والتربة والمعادن والنباتات والحيوانات. البحر مبتل للغاية. والصحراء، من جهة أخرى، مبتلة أيضا ولكن بدرجة أقل. ولذا فعندما نكون على الماء في الجانب الآخر من الخط الذي يُزعم أنه يفصل البحر عن اليابسة، فإننا ندرك ان الأرض جزء من مخطط معين يريد لها أن تكون صالحة لسكن البشر. هذه مساحة الغرض منها أن تكون مسرحا للتجربة والفهم والمعرفة الإنسانية. على أن الحاضر يشهد ارتفاع مناسيب البحار وعلو درجات الحرارة وتزايد عدد الفيضانات، في إشارة واضحة إلى أن هذه المساحة – مع ما تحويه من إنجازات حضارية ويقين بما يخبئه المستقبل – تتعرض لتهديد يستدعي النظر مجددا في الخط الفاصل الذي أتي بها إلى الوجود أصلا".

أراندها ماثور، ديليب دا كونيا

"البلل" هو الذي يميز دلتا نهر الغانج أكثر من أي شيء آخر يسعى لتعريف "اليابسة". وفي ملتقى أنهار البادما والميغنا والجامونا في جنوب بنغلاديش، فإن حوضها، الذي يرسّم الحدود الموضوعة بيد البشر ويبني أحلامهم وينقلها من جيل إلى آخر، هو في محصلة الأمر رقعة مبتلة. ولكن، من يوم إلى آخر، تختفي بقعة من الأرض وتذوب في المياه. فيتحرك سكانها إلى بقعة جافة أخرى حاملين معهم متاعهم وذكرياتهم. لكن ربما كان أهم ما يحملونه هو رغبتهم في العودة يوما ما إلى أرضهم المختفية. ولذا فهم يحرصون على الحفاظ على مستنداتهم ووثائقهم وخرائطهم التي تثبت ملكيتهم لمساكنهم وحقولهم القديمة.

على أن الانتظار يطول.. عشر سنوات.. أو عشرين أو ثلاثين.. وربما أكثر.. من يعلم؟ قد تطفو الأرض إلى السطح ذات يوم.. خلال جيل او جيلين أو ثلاثة.. وفي غضون ذلك، بينما يتأقلم السكان على أرضهم الجديدة، فهم يصونون بالقصص ذكرياتهم عن القديمة.. حكايات تنتقل من الأب إلى الابن إلى الحفيد، بينما المستندات والوثائق والخرائط قابعة في أدراجها.

خلال مواسم الجفاف ينحسر الماء، فتبرز أجزاء من اليابسة هنا وهناك. وطبيعي أن يكون صيادو الأسماك ورجال القوارب هم أول من يعلم بظهور هذه الرقاع الأرضية التي يطلق عليها السكان المحليون اسم "تشار". وكالعادة، كلما ظهرت تشار جديدة، ينتشر الخبر وسط الناس كالنار في الهشيم.

وطبيعي أن الدلتا أرض في غاية الخصوبة. وفي حال لم تختف التشار خلال السنوات الأربع الأولى لظهورها، يمكن استخدامها حينئذ إما للزراعة أو الاستيطان. وهذا أمر يشجع العائلات المشردة و"بدو" الضفاف (الذين يطلق عليهم اسم التشاروا) على الهجرة إلى هذه الأراضي الناهضة حديثا. وأيضا فإن مصب نهر الميغنا يزخر بسمك الهيلسا الذي يهاجر ضد التيار لوضع بيضه. ويذكر أن هذا السمك هو المفضل على الإطلاق لدى السكان في عموم شبه القارة الهندية.

وبنما يتنازع مختلف الناس على ملكية الأرض، تخطو الطبيعة أماماً بالعشب الطويل (المسمى محليا الهوغول) فيعمل بمثابة أوتاد تثبت التربة في مكانها. وأول ما يظهر من الأسماك هو "نطّاط الطين" البرمائي الذي يجتذب الطيور، ثم تخرج أفواج المحار والسلطعون وغيرها. وبينما ينهمك الصيادون في ترسيم حدودهم على التشار، يحضر غيرهم الجواميس من أجل الرعي. ومن جهتهم يستغل التشاروا الفرصة للعمل رعاة للماشية.

وفي مستوطنة هيمتشار في أسفل نهر الميغنا ظهرت تشار جديدة على مكان كان جزءاً من ضفة إبتلعته المياه في 2002. ويتذكر شافيول عزام شميم – وهو مهندس معماري يعيش ويعمل في داكا – مسكن جده الذي أخذه الماء اليه قبل أن يعيده مع ظهور التشار الأخيرة. فيقول إن المسكن، الذي كان يزوره وهو طفل، كان مؤلفاً من غرفتين ومطبخ ومرحاض شيدت حول فناء مستدير. ويضيف وهو يقف في وسط الفناء: "هذا هو المنزل نفسه. لم يتغير فيه شيء واحد غير أنه اتخذ له موقعا جديدا الآن. هذان المبنيان تمكنا من الصمود في وجه الماء. والواقع أن هذه هي المرة الثالثة التي يختفي فيها المنزل ليظهر في موقع جديد". ولشميم حكايات كثيرة عن مساكن اختفت فترة من الزمن وعادت للظهور من جديد في مواقع أخرى. ومثلا هناك طبيب قروي يدعى نازرول إسلام ورث مسكن جده الذي بُني قبل 60 عاما. ويقول إنه خلال تلك العقود الستة غير المسكن موقعه ما لا يقل عن سبع مرات.

وأفضل شرح لظاهرة "التشار" البنغالية، الزائلة بطبيعتها، يكمن في كونها نتاجاً فرعياً للتدفق الهائل في مياه منطقة الهملايا. فدلتا الغانج عبارة عن نظام مائي يتمتع بقدر عظيم من الديناميكية التي تتجلى مظاهرها في جرف اليابسة في مكان ما وفي الوقت نفسه الإضافة إلى اليابسة في مكان آخر. وقد ظلت تلك الظاهرة، على مدى أزمان طويلة، تشكّل حياة البنغاليين في هذه الرقعة الهشة من العالم. فمنسوب المياه يرتفع في وقت الرياح والمطر الموسميين (المونسون) بين يونيو / حزيران واكتوبر / تشرين الأول. فتحمل الروافد مياهها الزائدة من جبال الهملايا ويكون الناتج هو تعرية عميقة لضفاف الأنهار بسبب شدة الأمواج. وتؤدي هذه العملية دورا أساسيا في الترسيب وتالياً تشكل الطمي، ما يعدّل بدوره من شكل الدلتا.

وتبلغ مساحة دلتا الغانج في شكلها الحالي 105 آلاف كيلومتر مربع. وتحمل الأنهار نحو مليار طن من الرواسب تضيف مساحات كبيرة من الرقعة الأرضية في المناطق الساحلية. وتختلف هذه الدلتا عن بقية دلتاوات العالم في ظاهرة جيولوجية تسمى الامتدادية وتحرم النظام النهري من عنصر الاستقرار. فقد ظلت دلتا الغانج، على مدى السنوات الخمس الماضية، تمتد باتجاه البحر نفسه بمعدل 17 كيلومتراً مربعاً كل عام[[1]](#footnote-1). ولهذه الأسباب كلها يمكن القول إن سكان الضفاف في بنغلاديش يعيشون في خليط متناقض من الهناء والشقاء.

الجد الذي أشار إليه شميم هو محمد إمام حسين بيباري الذي يبلغ عمره الآن 83 سنة. وينشغل جيرانه حاليا باجتماعات عديدة مع "الأمين" كوكون بيباري. و"الأمين" شخص تستأجر خدماته الحكومة ليقوم بعمليات مسح الأراضي وتسجيلها والتوسط في النزاعات حول الملكية. وخلال حكم المغول كانت مهمة الأمناء هي جباية الضرائب من السكان. وحتى اليوم يظل هؤلاء هم المرجع الموثوق به والجهة الأفضل على الإطلاق عندما يتعلق الأمر بالجوانب القانونية لملكية الأرض.

ويتذكر عواجيز القرى مواقع مساكنهم بالإشارة إلى أشجار أو معالم ثابتة معينة في المناطق المجاورة التي لم يدركها الجرف المائي. ولا تزال خورشيدة بيغوم، وهي عمة شميم وتبلغ من العمر 65 عاما، تعيش في مسكنها على ضفة نهر الميغنا بفضل أنه نجا من يد الجرف الأخير الذي ضرب المكان. وكانت هي وأسرتها تتهيآن للرحيل قبل الفيضان لكن النهر تعطّف بهما وتركهما في سلام. ولأن معظم المساكن في منطقتها لم يسعدها الحظ على هذا النحو، فقد ظل مسكنها هو الوحيد القائم في منطقتها وصار بالتالي معلماً بارزاً ومرجعاً للآخرين الذين يطالبون بالتعويض في آخر "تشار" برزت فوق الماء. هذا إذن هو وقت إخراج المستندات والوثائق المتعلقة بالملكية من أدراجها المغبرّة. وعبر اجتماعات مع الأمين وزيارات للتشار، تتم تسوية المساحات الممنوحة للكل، اعتماداً على المسوحات القديمة المعروفة محليا باسم "خرائط الموزا".

ويعود تاريخ ملكية الأراضي إلى "عهد السلطنة" (من القرن الرابع عشر إلى السادس عشر الميلادي) لكن توثيقها قانونيا على الورق لم يبدأ إلا في العام 1888. وفي أعقاب البدء في تطبيق "قانون الإيجار البنغالي" في 1885، استنت الإمبراطورية البريطانية مسوحات الملكية الحديثة بغرض تسهيل جمع الضرائب. وقد اكتملت هذه المسوحات العام 1940 وخضعت للمراجعة مرتين فقط منذ ذلك التاريخ. واليوم فإن "خرائط الموزا" هي الوثائق الملكية الوحيدة التي تعترف بها مصلحة الأراضي البنغالية كبرهان على الملكية.

وهذا يعني أن التشارات التي برزت بعد ذلك تظل غير موثّقة. ويذكر أن أي أراض غير موثقة تعتبر ملكاً للدولة وتسمى محلياً الأرض "الخاص". وهذه، فى أغلب الحالات، أراض يقطنها المشردون وبدو الضفاف. لكن في أحايين كثيرة سُجلت حالات استولى فيها الميسورون من المزارعين (يسمون الجوتدار) وملاك العقارات على رقاع واسعة من تلك الأراضي. ولأن المشردين والرُحّل يفتقرون إلى الوثائق الرسمية التي تثبت ملكيتهم لما حصلوا عليه، صار بوسع الجوتدار خداعهم بسهولة عبر إبرازهم مستندات مزيفة تخيفهم وتقنعهم بضرورة الرحيل أو مواجهة العقاب القانوني.

في عهد الامبراطورية البريطانية بدأت أجزاء كبيرة من الأهوار تتصلّد وتتعزز حتى صارت ضفافا نهرية فصارت تعرّف باعتبارها تشكيلات جغرافية. وأجري أول مسح لشبكة الأنهار في العام 1820 على يد مصلحة الأراضي التابعة لشركة شرق الهند البريطانية بغرض إثبات الشركة ملكية الأراضي هناك. وهدف هذا الإجراء للاستيلاء على سائر المناطق غير المتنازع على ملكيتها إضافة إلى تلك التي يقطنها سكان لا يملكون وثائق الملكية القانونية. وكما كتب ديبجاني بتاتشاريا: "حوّل تجار من شركة مساهمة مشتركة أنفسهم إلى مستأجرين ومهدوا الطريق بذلك إلى الاستحواذ على الأراضي في المستعمرة"[[2]](#footnote-2).

هكذا نشأ مفهوم الحد الفاصل بين الماء واليابسة. وفُرضت ممارسات "ثقافة اليابسة" – التي رسّمت حدود الأنهار بخطوط واضحة – على "الثقافة المبتلّة" في الدلتا البنغالية التي إعتادت على "التفاوض" مع مجرى المياه والتأقلم معه تبعاً لذلك.

ما الذي يجبر الناس على العيش في أراض قاسية كهذه؟ لماذا لا يرحلون إلى رقاع أكثر استقراراً؟ يجيب على ذلك جد شميم بقوله" "لأن هذا هو الموطن. هذا هو المكان الذي يقطنه أهلنا وأحبابنا". ومع ذلك فعندما تتحدث إلى السكان المحليين يتكشف لك الكدح المعيشي الهائل الذي يلقي بظلاله عليهم والذي يتجذّر في الثراء الطبيعي الذي تتميز به بيئة الدلتا.

هل من الممكن اعتبار هذا البلل يابسة؟ هل ينطبق المفهوم القانوني للأرض على هذه الرقاع الزائلة؟ هل يمكن توريث البلل للأجيال المقبلة عبر لغة تملّك الأراضي؟ لا شك في أن التغيّرات المناخية الكونية الناشئة عن الأنشطة البشرية ستزيد كثيرا في هشاشة دلتا الغانج خلال العقود القليلة المقبلة. إذن، فتلك الأسئلة بحاجة إلى طرحها على طاولة النقاش في وقت تتعاظم فيه التقلبات ويكون التأقلم فيه على عدم الاستقرار هو الاستراتيجية الوحيدة المتبقية.

1. جاكيا اكتر ومامينول حق ساركار وجوانا روبيشكو ودانا رويلفينك: “Evolution of the Bengal Delta and Its Prevailing Processes,” Journal of Coastal Research 32, no. 5 (2016), 1212–26.

   [↑](#footnote-ref-1)
2. ديبجاني بتاتشاريا: “Manufactured Landscape: Law and Hydraulics in the Bengal Delta,” Technology’s Stories, June 21, 2016, http://www.technologystories.org/manufactured-landscapes-law-and-hydraulics-in-the-bengal-delta/ (تم الاطلاع عليها في 28 أغسطس / اب 2019). [↑](#footnote-ref-2)